# الحلم وصناعة النفوذ بشبه الجزيرة العربية "مكة وشغف الماء"

***خالد مجوط***
جامعة بن طفيل القنيطرة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، المغرب
**mejjout.88@gmail.com**

DOI: https://doi.org/10.56807/buj.v4i03.346

**الملخص**

يهدف بحثنا هذا دراسة أحد الأحلام التي كان لها الأثر في صناعة جانب من تاريخ شبه الجزيرة العربية، قبل مجيئ الإسلام وبعده، ويتعلق والأمر هنا بحلم عبد المطلب، الذي توخينا من دراسته إبراز أحد العناصر الفاعلة في إدارة الصراع الاجتماعي بين عبد مناف وعبد الدار، حول سقاية الحجيج، وتوظيف الرواسب الميثولوجيا، لذا عرب ما قبل الإسلام لإضفاء القداسة على الحلم، ومنحه الشرعية الدينية من طرف عبد المطلب، وتتبع مساهمة حفر هذا البئر، في الانتقال التدريجي من مجتمع الترحال إلى مجتمع الاستقرار، ومن الاعتماد على التجارة كمصدر للثروة، إلى الزراعة كنشاط أساسي في النظام الاقتصادي بالمنطقة.

**الكلمات المفتاحية:** الحلم-مكة-الجزيرة العربية-عبد المطلب-زمزم-عبد مناف-عبد الدار.

***Abstract***

*The goal of this reserch is to study one of the dreams who was a impact in the history of arabian Peninsula before and after the islam. It' s a dream of Abdu el motaleb. We explain in this resersh the very importants elements in the conflicts between Abd Manaf and Abd Addar il was the watering of pilgrims and employment of the sediments of metolody in the Arabs before the islam to give a holiness and the religious legitimacy to the dream by abdu elmotaleb to follow the participation of borehole who create a stability and transition from the commerc as a source of wealth to the agriculture as a primary activity of the economic regime of the region*

***Keywords:*** *Dream - Arabian peninsula – Abdu elmotaleb – Zemzem- Abdu Manaf- Abdu Addar-*

**مقدمة الدراسة**

يندرج موضوع دراستنا في إطار ما يسمى بالتاريخ الاجتماعي، باعتباره مجالا، جعل الباحث في حقل التاريخ، ينتقل من الاهتمام بالتاريخ الحدثي والسياسي، إلى دراسة الأبعاد الثقافية للحدث التاريخي وكيف ساهمت في صناعة أحداث على درجة كبيرة من الأهمية، وذلك وفق منهجية تتوخى البحث في الأحداث التي لطالما بدت للباحث هامشية وعادية، لكنها كانت فاعلة في صناعة الحدث التاريخي وتغيير مصير الشعوب، ومنها الأحلام، وحلم عبد المطلب لا يمكن فصله عن هذه القاعدة، كونه أعاد ترتيب النفوذ السياسي بمكة.

**الدراسات السابقة**

في إطار إنجاز بحثنا هذا، صادفنا مجموعة من الإشارات التي جادت بها بعض المصادر، لكنها لا ترقى إلى مستوى الدراسة، لذلك وقع اختبارنا على هذا الموضوع، مستغلينا في ذلك ما جاد البحث التاريخي من جدة منهجية.

**مشكلة الدراسة**

تنبني إشكالية الدراسة التي نحن بصدد إنجازها، على إبراز أثر الحلم، باعتباره منتوجا تاريخيا يعبر عن صراع اجتماعي وسياسي واقتصادي، شهدته شبه الجزية العربية، وكان الماء محور هذا الصراع، والحلم المعبر المادي عنه.

**أسئلة الدراسة**

حاولنا من خلال بحثنا هذا طرح مجموعة من الإشكاليات من قبيل:

هل بئر زمزم كانت موجودة قبل حلم عبد المطلب؟

كيف ساهم الحلم في إعطاء الشرعية لعبد المطلب قصد حفر البئر؟

ما أثر هذا الحلم في التحولات السياسية التي عرفتها مكة؟

**حدود الدراسة**

شمل بحثنا هذا، دراسة الصراع بين عبد مناف وعبد الدار، حول إعادة حفر بئر زمزم في مكة، خلال القرن السادس ميلادي.

**تمهيد**

كانت مكة تستوقف زوارها والقوافل المارة منها بحكم وجود البيت أو الكعبة التي شكلت مزارا للحجاج، بينما شدت انتباه القوافل لتروي عطشها من بئر زمزم الذي نسجت حوله الأساطير والأحلام، ومنها حلم عبد المطلب الذي جاءه في المنام هاتف يقول **"احفر طيبة، فقال له: وما طيبة؟ قال:ثم ذهب عني، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه، فجاءني فقال: احفر برة. قال: وما برة ؟ قال: ثم ذهب عني، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي، فنمت فيه، فجاءني وقال: احفر المضنونة. فقال: قلت: وما المضنونة ؟ قال: ثم ذهب عني. فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه، فقال: قال احفر زمزم. قال: قلت: وما زمزم ؟ قال لا تنزف أبدا ولا تذم ، تسقي الحجيج الأعظم، وهي بين الفرث والدم، عند نقرة الغراب الأعصم عند قرية النمل"** ابن هشام. د ت. ص.75)

**1. مكة وحفر الآبار.**

فرضت البيئة الصحراوية الصعبة في مكة على أهلها البحث عن الماء، فكان حفر الآبار جزءا من المجهود الذي قامت به الساكنة للتقليل من ندرة الماء، وعرفت قبائل مكة بحفرها للآبار قبل حفر بئر زمزم ( بن هشام. ط 2006. صص. 115.115) لسقي الحجيج القادمين إلى الكعبة، ومن أسماء الآبار التي تذكرها مصادر تلك الحقبة اليسيرة والروا كما حفر قصي بئراً سماها العجول واتخذها سقاية (البلادري. ط 1900. ص.55.) ليبقى البحث عن الماء من خلال العدد الكبير من الآبار التي ثم حفرها بمكة، إحالة إلى الندرة في المياه بحكم الظروف المناخية الصعبة، والحرارة المرتفعة طول السنة، وقلة الأمطار، بل وندرتها في أحيان كثيرة ( جواد. ط 1993. ص . 147). لكن السؤال المطروح هو لماذا اقترن حفر بئر زمزم بحلم يراه عبد المطلب وبالحجر على وجه التحديد؟ وهل فعلا زمزم لم تكن موجودة إلا بعد أن رآها عبد المطلب؟ وكيف أدى كشف عبد المطلب عن حلمه إلى دخول الأخوة في صراع شديد حول من له أحقية إعادة استغلال البئر؟ ولماذا زمزم وليس البرة والمضنونة؟ ولماذا قدمت الرؤيا تفسيرا لحفر زمزم في الوقت الذي أحجمت فيه عن تقديم تفسير لحفر المضنونة والبرة؟

**1. زمزم وأصل الوجود.**

تعود الإشارات الأولى لحفر بئر زمزم إلى هجرة النبي إبراهيم رفقة زوجته وابنهما إسماعيل قادما من الشام إلى شبه الجزيرة العربية، فنزل بالصحراء الجرداء بجبال فاران **"حيث لا أنيس به ولا حسيس، وكان إسماعيل رضيعا، ثم ذهب وتركها عن أمر له بذلك، ليس عند أمه سوى جراب فيه ثمر، وكان فيه ماء، فلما نفذ ذلك أينع الله لهاجر زمزم، التي هي طعام طعم وشفاء سقم"** (ابن كير. ط1997. ص. 179)، كما يخبرنا الأزرقي عن **"البئر التي كانت في جوف الكعبة كانت على يمين من دخلها وكان عمقها ثلاثة أدرع يقال: إن إبراهيم وإسماعيل حفراها ليكون فيها ما يهدى للكعبة"** (الأزرقي. ط 199) ص. 187) فلما اشتد العطش وضاقت السبل بهاجر وابنها إسماعيل جاءها ملك وضرب بجناحيه فانفجرت مياه زمزم (الفاكهي. ط 1994. ص. 5.)

أدى تضارب الآراء حول من حفر زمزم، من خلال الروايات التي بين أيدينا إلى ترك المجال مفتوحا أمام التأويلات، فابن كثير يربط حفر البئر بقدرة إلهية عليا تدخلت لإنقاذ هاجر وابنها إسماعيل من موت وشيك، نتيجة نفاد الزاد الذي تركه لهم إبراهيم، أما رواية الأزرقي فكانت أكثر وضوحا من غيرها، حيث نسب حفر البئر إلى قوة بشرية مجسدة في النبي إبراهيم وابنه إسماعيل، وهي الرواية الأرجح

على غيرها من الروايات، بحكم ارتباطها بقوة بشرية وليست بقوة مجردة كما جاء في المصادر الأخرى.

اقترنت رحلة النبي إبراهيم وزوجته هاجر وابنه إسماعيل بالعطش والجذب وهي صفات تتجلى في البيئة الصحراوية ومكة جزء منها، حيث شكل الماء فيها كنز الإنسان الصحراوي المفقود، كما ارتبطت الصحراء في الميثولوجيا العربية بإله العقم، هذا الإله ليكون قادرا على الانبعاث من جديد يحتاج إلى اللقاح، والقوة القادرة على فك هذا العقم هي الماء، الذي ارتبط بدوره لدى العربي بإله الخصب، إنه مانح الحياة للصحراء القاحلة التي كادت تزهق روح هاجر وابنها إسماعيل، ليرتبط زمزم بإله الخصب رمز العطاء والاستقرار، كما هو حال النيل عند المصريين اللذين بلغ بهم الأمر حد تقديسه وتقديم القرابين له، كونه مانح الحياة لهم، وكان الحلم (سورة يوسف. الآية. 4) حاضرا في التحول السياسي والاقتصادي والديني الذي عرفته مصر في عهد العزيز، وهو أمر ملازم للبيئة الصحراوية والمجتمعات الزراعية، فحلم عبد المطلب عمل على إعادة إحياء الزعامة السياسية والسيطرة الاقتصادية من خلال إعادة حفر البئر، فالماء هو القوة المادية التي يستطيع من خلالها عبد المطلب تحقيق مشروعه السياسي. فالهيمنة عليه تعني التحكم في الطرق التجارية، وتنظيم القبيلة. وهي كلها إشارات تحيلنا إلى أن بئر زمزم كانت موجودة قبل رواية عبد المطلب لحلمه، فهجرة النبي إبراهيم من الشام إلى الجزيرة العربية جاءت نتيجة فشله في إقرار دينه الداعي لتوحيد الإله الواحد ومحاربة عبادة الأصنام، فالمنطقة عرفت خلال الفترة المدروسة بانتشار واسع لعبادة الأوثان، ليشكل حفر البئر مرحلة مهمة للانتقال بالقبائل العربية من عبادة الأصنام إلى عبادة الإله الواحد في السماء. وما يدعم وجود البئر قبل رواية عبد الطلب لحلمه، كون هذا الأخير لما أخذ في حفر البئر صادف وجود سيوف قبل أن يدرك الماء (**الأزرقي**. ط 1994.ص. 549) ذلك يعني أن زمزم تعرضت للطمر من طرف الجرهميين بعد طردهم من طرف خزاعة حيث "**أخرج عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي بغزالي الكعبة وبحجر الركن فدفنها في زمزم**" ( بن هشام. ط 2006. ص.114) إنها إشارات واضحة إلى كون البئر التي رآها عبد المطلب في منامه كانت موجودة.

**الدلالات اللغوية والرمزية للحلم.**

لكل حلم لغته الرمزية ( فروم 1995. ص. 17) وحلم عبد المطلب كغيره من الأحلام يحمل في بنية نصه السردي مجموعة من الدلالات الرمزية، التي كانت اللغة المعبر عنها، ومن هذه الإشارات نجد المضنونة "**من ضنن، الضنة والضنن والمضنة كل ذلك من الإمساك والبخل ورجل ضنين بخيل والضنين من البخل**" (ابن منظور . ج 4 . ص. 2614) وهو ما لا ترضاه العرب لنفسها لما اشتهرت به من كرم، (ابن خلدون. 1972. ص. 123) ما فرض على النص الحلمي تدبير الصراع بناءا على توظيف الكلمات التي تخدم بنية الحلم، فالصراع بين عبد مناف وعبد الدار حول الزعامة جعل من انتقاء كلمات الذات الحالمة أساسا لتدبير الصراع، فلا يجوز لمن يريد أن يكون زعيما أن يتسم بالبخل والشح، بل يقتضي ذلك وجود صفات مرتبطة بالمروءة من شجاعة وإقدام وكرم، لذلك فالهاتف تعمد عدم الإخبار عن المضنونة لأنها لا تليق بزعيم مستقبلي لبني عبد مناف، واكتفى بالمرور من خلال الاكتفاء بالإشارة إليها، ليستمر إهمال و تجاهل البرة بدورها، لكن الهاتف لما بلغ إلى زمزم أخذ في وصفها وإبراز الصراع الذي سيحتدم من أجلها، فمن صفات البئر الموعودة أنها لا تنضب "يقال بئر ذمة وذميم وذميمة: قليلة الماء " (ابن منظور. د ت. ص1516) أما الفرث فمرتبط بالأذى والغم كما جاء في ابن منظور "الفرث: تفتيت الكبد بالغم والأذى" (ابن منظور. د ت.ص.3369.) بينما الدم وهي من دممت وتدم ذمامة، في كل ذلك: أسأت وأدممت أي أقبحت بالفعل والدميم: القبيح. (ابن خلدون. د ت. ص.14-27).

إلى حدود الفرث والدم يكون الحلم قد حدد بعض الصفات الجوهرية التي تسم البئر الموعودة ولعل أبرزها أنها بئر لن تنضب من الماء، كما أن ماءها دائم الانسياب ويكفي لسقي أهل مكة والوافدين عليها من مختلف الأمصار المجاورة، سواء من التجار أو الحجيج كما يتبين من الحلم، حيث يصرح بأن ماء زمزم كاف لسقي الحجيج مهما كان عددهم كما جاء على لسان عبد المطلب.

ومن الإشارات التي لها أهميتها في بناء النص الحلمي نجد تفسير الحلم في النص الحلمي، وهو أمر له أهميته من حيث أنه يجعل حدود تأويل أو تفسير الحلم محدودة، هذا التضييق في إمكانية التأويل له ما يفسره، من حيث أن فتح باب التأويل سيفقد الحلم قيمته. وما يدعم ذلك هو المنافسة التي اشتدت حول حفر البئر الموعودة، لأن السيطرة على الماء في تلك البيئة يؤدي إلى التحكم في شرايين الحياة الاقتصادية والسياسية، وذلك في ظل بيئة صحراوية وقاحلة يبقى فيها الماء مرتبط بالندرة. لينتقل بنا النص الحلمي إلى تحديد مكان حفر البئر التي أصبحت محط اهتمام الجميع، يجيبنا الحلم في الجملة الأخيرة يقول عند نقرة الغراب الأعصم " النقر: الكتاب في الحجر. ونقر الطائر في الموضع: سهله ليبيض فيه " (ابن منظور. د ت. ص. 4519) تخبرنا بعض الروايات بوجود عش لغراب أعصم داخل الكعبة بين الصنمين إيساف ونائلة حيث كانت تنحر قريش ذبائحها (ابن هشام. ط 2006. ص. 146) وهو ما سنأتي على ذكره في معرض حديثنا عن أهمية موقع مكة في صناعة النفوذ السياسي بالمنطقة.

ارتبط الغراب الأعصم في الميثولوجيا العربية بالإله الذي نصبه عمر بن لحي في المروة وحمل إسم **مطعم الطير**، وكانت

تقدم له الحنطة ويصب عليه اللبن وتقدم له الذبائح (الأزرقي. ط 2003. ص. 196.) فالبناء السردي لنص حلم عبد المطلب عمل جاهدا على توظيف الراسب الميثولوجي لدى عرب ما قبل الإسلام خاصة الارتباط بالمعبودات التي كانت سائدة بالمنطقة، أو من خلال استحضار مجد أجداد خاصة النبي إبراهيم وابنه إسماعيل، إضفاء المزيد من القداسة على حلمه ومنحه الشرعية الدينيةّ.

**الحلم وصراع حفر البئر.**

يبقى مبدأ الصراع داخل المجتمع أو القبيلة مدخلا للبناء الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وحلم عبد المطلب تعبير صريح عن هذا الصراع بين أبناء القبيلة فالبدو عرفوا بالغزو، بل إنهم لما لا يجدون من يقاتلونه يتقاتلون في ما بينهم،( حتي. ط 1949، ص، 31). فكشف عبد المطلب لحلمه جعل أبناء قصي يدخلون في صراع حول من له الأحقية في إعادة حفر هذه البئر، فبنو عبد مناف ومنهم عبد المطلب لم يستسيغوا انفراد عبد الدار باستغلال السقاية والرفادة والحجابة واللواء والندوة.(ابن كثير. ط1997. ص. 243.)

فصراع الزعامة والقيادة بين أبناء قريش، الذي كان يحتاج إلى جانب الجاه والمكانة التي كان يحضا بها أبناء قصي لم كافيا لحسم الصراع، فأصبح واجبا على عبد المطلب البحث عن ما يميزه عن غيره من أبناء القبيلة، فكان الحلم أداته في إظهار تميزه وتفرده في حفر البئر. وهو ما جعل عبد المطلب دقيقا في اختيار كلمات حلمه، فأول عملية قام بها هي حصر الصراع الصراع بين أبناء قصي، فالبرة تشير إلى حبة الزرع وهي إحالة إلى قصي وأبنائه، بينما تحيل طيبة إلى الكرم والخير، في ما رفض حفر المضنونة لأنها مرتبطة بالبخل، لكون قصي عرف بكرمه وحسن سيرته في معاملته للحجيج القادمين إلى الكعبة، وافتخر بنو عبد مناف على قريش بأجمعها وسائر العرب بامتلاكهم السقاية والرفادة بزمزم:

**ورثنا المجد عن أبائنا فنما بنا صعدا**
**ألم نسق الحجيج وننحر الدلافة الرفدا**
**ونلقي عند تصريفا المنايا شددا رفدا**
**فان نهلك لم نملكا ومن ذا خالد أبدا ؟**
**وزمزم في أرومتنا، ونفقأ عين من حسدا** (بن هشام. ط 2006. ص. 116.)

إن عملية تحييد باقي الخصوم وحصر الصراع بين أبناء قصي، ليس كافيا لحسم صراع السيطرة على البئر بل كان للقوة حضورها في تدبير الصراع، فالأبيات السالفة الذكر تعبير صرح عن استعداد بني مناف للدخول في حرب مع كل من سولت له نفسه منافستهم على خفر بئر زمزم، ولعب مجد الآباء دورا حاسما في بناء النص الحلمي والمقصود بهم النبي إبراهيم وابنه إسماعيل، هذا المجد والشرف مكنهم من الزعامة والسلطة. كما يذكرون منافسيهم بفضل عبد مناف على الكعبة من خلال تحملهم مسؤولية سقي الحجيج ونحر الذبائح خاصة الإبل سواء للوافدين على الكعبة أو آلهة،

دفعنا سعي أبناء قصي للحديث عن مجد أبائهم إلى البحث في جذور هذا المجد، وهو أمر له ما يفسره، فارتباط عبد المطلب بالنبي إبراهيم له أهميته في تثبيت بنية النص الحلمي ومنحه صلابة أمام ناقضيه، فالنبي إبراهيم اشتهر بحلمه الذي رأى فيه أنه يقوم بذبح ابنه اسماعيل (سورة الصافات. الآية. 120) وهو ما يحيل إلى الالتزام والتضحية، وهي رسالة واضحة إلى كل من حاول التفكير في منافستهم على شرف القيام بأمر الحجيج وخاصة السقاية، وأبدوا استعدادا للمواجهة والحرب، وبدا ذلك جليا في حلمه، من خلاله التحذير الموجه لعبد المطلب والمتمثل في كون حفر هذا البئر يلزمه الحيطة والصبر على منافسة الآخرين.

فالحلم أخذ يهيئ المنافسين لتقبل فكرة كون البئر ستكون من نصيب بني عبد مناف، سواء من خلال استحضار مجد الآباء المتجسد في الانتماء للنبي إبراهيم وابنه إسماعيل، أو اللجوء إلى لغة التهديد والوعيد.

2. **الحلم والماء والنفوذ السياسي بمكة.**

كانت مكة منذ الأزل وإلى يومنا هذا مركزا للبناء السياسي والاجتماعي والاقتصادي بالمنطقة، نظير ما توفر فيها من إمكانيات لم تتوفر لغيرها من المراكز التجارية المجاورة، منها الماء والكعبة، فالماء مصدر كل الثروات من زراعة وحيوان، بنما الكعبة شكلت مزارا للحجيج ما جعلها منبعا للثروة، وهي ثنائية جعلت من عبد المطلب متشبثا بالسيطرة على بئرها وكعبتها، وبذلك يكون الماء قد مارس كامل تأثيره سواء على المستوى المقدس والمدنس، فوظيفة الماء المقدسة تجلت في محاولة الارتقاء بالإنسان العربي من عبادة الأوثان إلى عبادة الإله الواحد في السماء موظفا في ذلك عبد المطلب إرث النبي إبراهيم، وبالتالي تجديد الإله يصاحبه تجديد في أشكال ممارسة الدين داخل المجتمع، بينما وظيفته المدنسة تبلورت في الانتقال بمجتمع مكة من الترحال إلى الاستقرار.

تولى أمر زمزم بعد نابت بن إسماعيل جرهم الذين ارتبط استيطانهم للكعبة بقصة الطائر الذي دلهم على البئر التي كانت بحوزة هاجر زوجة النبي إبراهيم، (ابن كثير. ط 1997. ص. 197) عندما قصدوها ليرووا عطشهم، إلى أن استقر بهم المقام بالكعبة وسار أمرها بعد ذلك إلى نابت بن إسماعيل، وهو ابن أخت الجرهميين الذين طمعوا في ابن أختهم إلى أن أصبح أمر الكعبة وزمزم بيد الجرهميين (ابن كثير. ط 1997. ص. 180.)

هكذا يسوق ابن كثير سيطرة الجرهميين على أمر زمزم، فبعد أن كان همهم هو الارتواء من مائها، أصبحوا الآن أسيادها بعدما خلفوا عهدهم لهاجر، كما شكل الطائر رمزا للماء في

الصحراء فتحليقه فوق البئر هو من أرشد الجرهميين ووجههم إلى مكان البئر. وهو أمر سعى إلى تحقيقه عبد المطلب من خلال حلمه، الذي يجسد استمرارا للصراع حول الزعامة بمكة. كما يشير ابن كثير إلى ما صار إليه أمر الجرهميين لما استقر أمرهم وسارت مفاتيح مكة بأيديهم حيث " **بغت جرهم بمكة وأكثرت فيها الفساد وألحدوا بالمسجد الحرام، حتى ذكر أن رجلا منهم، يقال له: إيساف ابن بغي، وامرأة يقال لها، نائلة بنت وائل، اجتمعا في الكعبة، فكان منه إليها الفاحشة، فمسخهما الله حجرين** " (ابن كثير. ط 1997. ص. 181)

لما جاء الجرهميون إلى الكعبة واستقر أمرهم بها تمردوا على العبادات السائدة، فأسطورة إيساف ونائلة ارتبطت في الميثولوجيا العربية بقضية البغاء (الأزرقي. ط 2003. ص. 149) الذي مارسه إيساف ونائلة داخل الكعبة التي تبقى مكانا مقدسا لأهلها، ما يعني تمردا على القيم التي تحكم مجتمع مكة، فعوقبا من خلال مسخهما، لكن البحث في حفريات بنية الأسطورة، يحيل إلى أن عملية المسخ ما هي إلا محاولة تبريرية لعودة عبادة الأوثان، والحنين إلى الزمن الأسطوري، كما جسدته دعوة عمرو بن لحي لعبادة إيساف ونائلة (الربيعي. ط 2008. ص. 117) بعد سيطرة خزاعة وطردهم جرهم ، لتأتي عبادتهما في سياق عبادة إله الخصب يوسف، الذي يرمز إلى الخصب الذي ينتظره إله العقم الذي تمثله زليخة زوجة عزيز مصر، كما انتظر إله العقم نائلة إله الخصب إيساف إلى أن واقعها في الكعبة، وهذا الأمر له دلالته عند تفكيكنا للشق الثاني من حلم عبد المطلب بعد عودته إلى مضجعه للحصول على مكان حفر البئر عندما جاءه الهاتف قائلا "**احفر زمزم، إنك إن حفرتها لم تندم، وهي تراث من أبيك الأعظم، لا تنزف ولا تذم، تسقي الحجيج الأعظم، مثل نعام جافل لم يقسم، ينذر فيها ناذر لمنعم، تكون ميراثا وعقدا محكم، ليست كبعض ما قد تعلم، وهي بين الفرث والدم**" (ابن هشام. ط 2006. ص. 113)

حاك عبد المطلب خيوط حلمه بدقة متناهية، فالمنادي ألح على حفر البئر حيث مقام إبراهيم "**فهي تراث من أبيك الأعظم**"، مذكرا إياه بالمكانة الاعتبارية التي يحضا بها عبد مناف، وكذلك إيساف ونائلة اللذين يرمزان إلى إله الخصب المرتبط بالنسل والماء، الذي يرمز إلى خصب المجال، كما أن هذه البئر لا تنضب وليست قليلة الماء، ما يؤهلها إلى سقي الحجيج اللذين اشتهر قصي بسقايتهم، فلا يمكن أن يقوم بهذه المهمة بعد وفاته إلا أحد أبنائه، وها هو عبد المطلب يستثمر الإرث الذي خلفه أجداده وأبوه في نفوس أهل مكة، لتصبح ميراثا يتداوله أبناء عبد المطلب في ما بينهم، والحلم سيمنح هذا الإرث صلابة وقوة دينية من خلال الارتباط بالنبي إبراهيم.

أما مسألة النذر التي ألزم عبد المطلب نفسه بها في الحلم فترتبط بطقس مارسته عرب ما قبل الإسلام، منذ عبادة هبل إله العرب الأول، حيث كانت تقدم الهدايا بجوف الكعبة تيمنا به، كما أن لجوء عبد المطلب إلى القداح السبع، ليس إلا إحياءا لأسطورة كان العرب يذهبون من خلالها إلى صاحب القداح السبعة التي كانت عند هبل في الكعبة (الأزرقي. ط 2003. ص. 187) ليضرب بها عندما يقعون في خلاف حول عودة الشخص إلى نسبه (الكلبي. ط 2004. ص. 28)

أو حفر أبار للمياه ضربوا بالقداح وفيها لك القدح فحيثما خرج عملوا به (السهيلي.ط 1967. ص. 131).

مثل هبل في جانب من عبادته إله الخصب، من خلال القدح المخصص للماء، فهبل نصب صنما إيساف ونائلة رمزا الخصوبة والنسل، فحيث إيساف ونائلة أعيد حفر البئر، إنه الارتباط والحنين إلى الزمن الأسطوري، حيث الخصب والعطاء والحياة، التي أصبح يمثلها زمزم عند عرب مكة، وأوزيريس عند المصريين القدامى، في مواجهة إله العقم والجفاف الذي تمثله الصحراء، ليجسد صراع الإنسان من أجل البقاء، ومواجهة التحديات، إنها مرحلة محورية في سبيل الانتقال من الاعتماد على التجارة كمصدر وحيد للثروة، إلى ممارسة النشاط الزراعي، بحكم وفرة الماء الذي يبقى المصدر الأساس لقيام بأي نشاط زراعي، وبذلك تكون الجزيرة العربية ومنها مكة أمام الإرهاصات الأولى لتغيرات بنيوية، خاصة ما يتعلق بالانتقال من القبيلة إلى الدولة المركزية، ومن النجعة إلى الاستقرار.

هكذا تمت عملية إعادة صياغة أسطورة النذر، من خلال استحضار الراسب الميثولوجي المتعلق بعبادة هبل وتقديم القرابين، واستحضار قضية القداح السبع، موظفا إياها عبد المطلب، قصد اختيار الابن الذي سيقع عليه اختيار الآلهة، لتقديمه قربانا لإله الخصب، كما قدمت زليخة نفسها قربانا لإله الخصب يوسف، فتسود روح التضحية والالتزام، التي طبعت النبي إبراهيم الذي أمر بذبح ابنه إسماعيل. التزام سيأخذه عبد المطلب على عاتقه في سعيه لحفر البئر والتضحية للسيطرة عليه.

## خاتمة

مكنتنا عملية دراسة حلم عبد المطلب من الانفتاح على جوانب من التاريخ المنسي، فالحلم شكل مدخلاً للبحث في تاريخ مكة من خلال حلم حفر بئر زمزم، انطلاقا من تتبع أصول وجود البئر والصراعات التي دارت حولها منذ وصول الجرهميين إليها، إلى حين تسلم بني عبد مناف أمرها، وهو ما سمح لنا برصد الصراع الأزلي الذي شهدته مكة باعتبارها مركزا دينيا ومصدرا للماء، وهو أمر ليس غريب عنها، فالصراع امتد مع مجيئ الإسلام، بل مازال حاضرا إلى يومنا هذا، فمكة اليوم قبلة للحجاج المسلمين من كل بقاع العالم، وزمزم مازالت تقوم بدورها في سقي الحجيج، بل أصبح ماءا

مقدسا ساعيا إليه كل من أراد أن يروي عطشه. من هنا تكمن أهمية دراسة حلم عبد المطلب باعتبارها منتوجاً تاريخيا أسس لبنية نفسية ودينية وسياسة مازالت امتداداتها قائمة إلى يومنا هذا.

**قائمة المصادر والمراجع**


1. ابن هشام عبد الملك المعافري. **السيرة النبوية**. تحقيق وضبط مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي. د ت. القسم الأول. الجزء الأول والثاني.
2. بن هشام عبد الملك المعافري. **سيرة بن هشام**. تحقيق وتخريج جمال ثابت ومحمد محمود وسيد إبراهيم. (ط 2006). الجزء الأول. دار الحديث.
3. البلادري أحمد بن يحيى بن جابر بن داوود. **فتوح البلدان**.(ط 1900)
4. علي جواد. **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**. (ط 1993ط) الجزء الأول. جامعة بغداد.
5. ابن كثير.**البداية والنهاية**. تحقيق عبد الله بن عبد المحن التركي. (ط 1997). دار هاجر.
6. الأزرقي أبو الوليد محمد بن عبد الله. **أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار**. دراسة وتحقيق، عبد الملك بن عبد الله بن دهيش. ( ط 2003). مكتبة الأسدي.
7. الفاكهي محمد بن اسحاق بن العباس. **أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه**. دراسة وتحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهيش. (ط 1994). الجزء الثاني. دار خضر.
8. سورة يوسف، الآية 4،
9. الأزرقي أبو الوليد محمد بن عبد الله. **أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار**، دراسة وتحقيق، عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، (ط2003). مكتبة الأسدي.
10. ابن هشام عبد الملك المعافري. **السيرة النبوية**. تحقيق وضبط مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي. د ت. القسم الأول. الجزء الأول والثاني
11. إيريك فروم، **اللغة المنسية مدخل إلى فهم الأحلام والحكايات والأساطير**، ترجمة حسن قبيسي، (ط1995). المركز الثقافي العربي.
12. ابن منظور. **لسان العرب**. ج الرابع. د ت. من ش إلى ع. دار المعارف. القاهرة.
13. ابن خلدون، **مقدمة**، مؤسسة الأعلمي، بيروت-لبنان، (ط 1972)، ص. 123.
14. ابن منظور. **لسان العرب**. الجزء 3. . د ت. دار المعارف. القاهرة.
15. نفسه. ج 5.
16. نفسه. ج 2.
17. نفسه. ج 6.
18. ابن هشام عبد الملك المعافري. **السيرة النبوية**. تحقيق وضبط مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي. د ت. القسم الأول. الجزء الأول والثاني.
19. الأزرقي. **أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار**. دراسة وتحقيق. عبد الملك بن عبد الله بن دهيش. (ط 2003). مكتبة الأسدي.
20. حتي فليب. **تاريخ العرب**. (ط1949). ج الأول. دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع.
21. ابن كثير. **البداية والنهاية**. تحقيق عبد الله بن عبد المحن التركي. دار هاجر(ط 1997). دار هاجر.
22. بن هشام عبد الملك المعافري. **سيرة بن هشام**. تحقيق وتخريج جمال ثابت ومحمد محمود وسيد إبراهيم. (ط 2006). الجزء الأول. دار الحديث.
23. سورة الصافات. الآية. 4.
24. ابن كثير. **قصص الأنبياء**. تحقيق عبد الحي الفرماوي. (ط 1997). دار الطباعة والنشر الإسلامية.
25. ابن كير **البداية والنهاية**، تحقيق عبد الله بن عبد المحن التركي. (ط 1997). دار هاجر.
26. نفسه.
27. الأزرقي أبو الوليد محمد بن عبد الله. **أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار**. دراسة وتحقيق. عبد الملك بن عبد الله بن دهيش. مكتبة الأسدي، (ط 2003). مكتبة الأسدي.
28. الربيعي فاضل. **يوسف والبئر أسطورة الوقوع في غرام الضيف**. (ط 2008). رياض الريس للكتب والنشر.
29. بن هشام عبد الملك المعافري. **سيرة ابن هشام**. تحقيق وتخريج جمال ثابت ومحمد محمود وسيد إبراهيم. دار الحديث (ط 2006) دار الحديث.
30. الأزرقي أبو الوليد محمد بن عبد الله. **أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار**. دراسة وتحقيق. عبد الملك بن عبد الله بن دهيش. مكتبة الأسدي. (ط 2003). مكتبة الأسدي.
31. الكلبي أبي المنذر بن محمد السائب. **الأصنام**. تحقيق احمد زكي باشا. دار الكتب المصرية-القاهرة (ط 2004). دار الكتب المصرية القاهرة.
32. السهيلي عبد الرحمن. **الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام**. تحقيق وتعليق عبد الرحمن الوكيل. (ط 1967)، مكتبة ابن تيمية القاهرة.